التحكم في الوحش بداخلنا: مفتاح النجاح في ميادين قتال القرن الحادي والعشرين

الرائد دوغلاس إيه. برايِر، الجيش الأمريكي

الفائز بمسابقة ديبوي للكتابة

متى انخرط الجيش في الحرب، ثمة وحش داخل كل مقاتل يبدأ في جرجرة أصفاده، وعلى الضابط الجيد أن يعرف مبكراً كيف يُحكم سيطرته على ذلك الوحش، داخل رجاله وداخله في آن واحد.

- الجنرال جورج سي. مارشال، الابن.[1]

ثورة في الشؤون العسكرية؟

«ماذا أريد منك أن تفعله!؟» هكذا صاح قائد اللواء بصوته الجهوري. «أريد منك أن تقتلهم!»

كان اليوم هو 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1997، وكان اللواء الثالث بالفرقة الرابعة مشاة ("اللواء الحديدي") يشترك في "تجربة قتالية متقدمة" في قاعدة فورت هود بتكساس.[2] وكان الهدف من التدريب التحقق من صحة مفهوم «القوة 21» الخاص بالجيش. وكانت الفرقة تختبر، عن طريق محاكاة بالكمبيوتر، مدى فعالية أحدث جهاز رقمي للاتصالات، وطائرة استطلاعية، وأنظمة قتالية ضد نموذج لقوة سوفيتية مدرعة.

كانت نقط ضوئية على شاشة المراقبة المسطحة العملاقة لقيادة اللواء قد أشارت لتوها إلى أن الوحدات الحاشدة للعدو ("الكراسنوفنيون" الأشرار) أخذت في التحرك. وكانت المجموعة الكراسنوفنية للجيش الثاني تهاجم الفرقة. وداخل قطاع اللواء، كان لواء المخابرات مصيباً في تكهنه بأن الموجة الأولى من هجوم العدو ستشمل فرقتين للبنادق الآلية تابعتين لجيش العدو الأول للأسلحة الموحدة. وإذا بقي اللواء على قيد الحياة ليراه، فسوف تتبعه فرقة دبابات أخرى للعدو.

وفي هذا اليوم الأخير من التدريب، كان القائد الأصلع الرياضي البنية للواء الحديدي يقدم عرضاً. لو كان الجنرال جورج اس. باتون نفسه الملقب "بالعنيف الشجاع العجوز" حاضراً هنا، لانبهر بما رآه.

وفيا صاح القائد معلناً أوامره، انتفض ضباط الأركان إلى العمل، موجهين مروحيات الأباتشي التابعة للجيش ومقاتلات سلاح الطيران النفاثة جو أرض نحو مناطق اشتباك معدة سلفاً. وقد استنزفت هذه الهجمات العميقة الموجة الأولى من قوات العدو استنزافاً شديداً.

الرائد دوغلاس إيه. برايِر هو كبير ضباط المخابرات في الفوج الرابع عشر إشارة، ويلز، المملكة المتحدة. يحمل درجة الليسانس من جامعة ولاية ميزوري ودرجة الماجستير من كلية القيادة والأركان العامة، فورت ليفينوورث بكانزاس. حصل على جائزة بير بروكس لعام 2009 من كلية القيادة والأركان العامة، وجائزة آرتر ديربي لعام 2009، وفاز بالمركز الأول في منافسة دوغلاس ماك آرثر لكتابة المقالات القيادية. نشرت كتابه، القتال من أجل المرتفعات: الجيش الأمريكي والاستجوابات خلال عملية حرية العراق، لأول مرة مطبعة كلية القيادة والأركان العامة.

أعمال فنية: الهون في معركة تشالونز، ألفونس دي نوفيل (1836-1885)

ولكن قوات العدو، التي لم ترتدع، واصلت تقدمها داخل مرمى نيران المدفعية الصديقة، حيث رصدتها طائرات بدون طيار، مما مكن كتيبة المدفعية باللواء من قصف تشكيلاتها بوابل منهمر من القذائف. وفي نهاية المطاف، كان ذلك كثيراً على الفرق الأمامية للعدو، التي توقفت مختبئة واتخذت موقفاً متعجلاً للدفاع.

ومع ذلك، لم تنته المعركة. فقد مرت الفرقة 24 دبابات التابعة للعدو والتي لم تمس عبر موجات الفرق الأولى وكثفت هجومها. والآن بات "القتال المتلاحم"، من اختصاص أركان الكتائب التابعة أكثر من اختصاص أركان اللواء. إذ لم يكن باستطاعة أركان اللواء عمل شيء يُذكر أكثر من متابعة المعركة وانتظار نتيجتها. ولم ينتظروا طويلاً. فبعد بضع ساعات قصار، تعرضت فرقة دبابات العدو لضرب شديد اضطرها هي الأخرى إلى "الاختباء" غير قادرة على تحمل مزيد من العمليات الهجومية.

وتهلل ضباط أركان اللواء فرحاً، وأخذوا يبتسمون ويتبادلون الصفعات على ظهور بعضهم البعض. صحيح، أنه تم دحر بضع سرايا صديقة وإبادتها. ولكن أولئك الضباط كانوا مؤمنين بأنهم أثبتوا، مع ذلك، وجهة نظر معينة. وبالنظر إلى الوعي بالمواقف الذي لا تضاهيه أي وحدة للجيش في سجلات التاريخ، فإن أياً من الإصابات لم تكن بنيران صديقة. أكثر من ذلك، أنهم تمكنوا بفضل نطاق المواجهة الممتاز لأنظمة القتال والاستطلاع بلوائهم، من هزيمة قوة مهاجمة كان من شأن قوتها القتالية الفائقة أن تحقق نصراً مؤكداً على أي لواء أمريكي آخر.

وخلال هذا التدريب، سمع كثير من ضباط الأركان هؤلاء تعبير "ثورة في الشؤون العسكرية". وآمنوا بأنهم كانوا في طليعة ثورة كهذه. فقد تغيرت الأعمال الحربية، في اعتقادهم، إلى الأبد. وسوف يأتي قريباً اليوم الذي يستطيع فيه الجيش الأمريكي أن يلحق بسهولة الهزيمة بأي عدو يجرؤ على معارضته.

وبالطبع، كان هذا محض خيال.

ادخل: الواقع

بعد ذلك بست سنوات، وفي 3 كانون الثاني/ يناير 2004، أوقفت فصيلة من نفس اللواء اثنين من السكان المحليين عند نقطة تفتيش في سامراء بالعراق، حوالي الساعة 23:00 وقت حظر التجول.[3] وعند نقطة التفتيش، أجرى جنود السرية ألفا، بالكتيبة الأولى، الفوج الثامن مشاة، تفتيشاً دقيقاً للشاحنة.[4] وبعد أن اطمأن الجنود إلى أن الرجلين بداخلها، مروان وزيدون فاضل، ليسا من المتمردين، سمحوا لأبني العم بالانصراف.[5]

كان الملازم أول جاك سافيل، قائد الفصيلة، جالساً في مركبة برادلي القتالية القريبة.[6] وفيما انصرف ابنا العم،

أصدر أمراً لفصيلته باللاسلكي أن توقف الشاحنة مرة أخرى.[7] ولكي يلقن منتهكي حظر التجول درساً، أمر سافيل جنوده بمرافقته إلى جسر يمر فوق سد الثرثار وإلقاء ابني العم في نهر دجلة.[8] لم يكن ينوى إيذاءهما، كما شهد فيما بعد، ولكنه أراد تخويفهما.[9]

لم يتم على الإطلاق في محكمة عسكرية إثبات ما حدث بالضبط عندما ألقي العراقيان في النهر. وادعى مروان للمحققين بأنه سمع الجنود يضحكون وهو يصارع دون جدوى من أجل انقاذ ابن عمه البالغ من العمر 19 عاماً من الغرق في التيار القوي.[10] كذلك ادعى أفراد آخرون من العائلة بأن زيدون مات، وتم انتشال جثته بعد 13 يوماً من قناة أسفل السد.[11] ومع ذلك، أدلى الجنود الذين كانوا حاضرين هناك برواية مختلفة، مقسمين بأنهم- شاهدوا بأجهزة الرؤية الليلية - العراقيين وهما يتسلقان الساحل بسلام.[12] كما شهد قادة الكتيبة بأن مخبرين أبلغوهم بأن زيدون لا يزال على قيد الحياة.[13] ويعتقد أولئك القادة، أن المتمردين اختلقوا موته في محاولة لتشويه سمعة قوات التحالف.[14]

وسواء مات زيدون أو لم يمت، فقد أبدى سافيل حكماً سيئاً للغاية. وبالنظر إلى أنهما مجرد منتهكين لحظر التجول، يستحق ابنا العم العراقيين بلا جدال الحماية بمقتضى معاهدة جنيف.[15] الأكثر من ذلك، وضع سافيل نفسه ورجاله بتهور في موضع المخاطرة باتهامهم بالقتل الخطأ نتيجة الإهمال. وإذا لم يغرق زيدون، فلا شك أنه كان سيغرق، بالنظر إلى سرعة وعمق التيار الذي يجري تحت السد.[16] ومن المؤكد، أن احتجاز هذين المتهمين لأول مرة بخرق حظر التجول، طوال الليل كان كافياً لتلقينهما درساً حول أهمية الالتزام بالحظر.

وما هو واضح أيضاً أن الحكم الأخلاقي لقائد كتيبة أولئك الجنود، الفريق ناثان ساسامان، كان على نفس الدرجة من الانحراف. فعندما أبلغ بتحقيق مرتقب يجريه اللواء الثالث في الحادث، أمر ساسامان بالتستر عليه، وأبلغ مرؤوسيه بأن يبلغوا المحقق بكل شيء ما عدا "المياه".[17] وكان قرار ساسامان الكذب، وتوجيه جنوده إلى أن يكذبوا، اختياراً سيئاً مذهلاً من جانب أي ضابط أمريكي. فحقيقة أن ساسامان كان أيضاً خريج وست بوينت، وهي مؤسسة تضاهيها قلة من الكليات العسكرية الأخرى لتأكيدها على نزاهة الضباط، تجعل هذا الاختيار مثيراً لدهشة أكبر. إذ يعلن ميثاق شرف وست بوينت الشهير «أن الطالب العسكري لن يكذب، أو يغش، أو يسرق، أو يسمح للغير بأن يفعلوا ذلك».

اكتسب هذا الحادث سمعة دولية سيئة.[18] فتحت العين المتفحصة لوسائل الإعلام، وظهرت صورة لا تدعو للاعتزاز بالأساليب التي تمارسها الكتيبة. وأفاد الصحفيون بأن الوحدة اقتحمت البيوت، وركلت الأبواب، وأذلت سكانها من الرجال وعاملتهم بخشونة أمام أفراد عائلاتهم، وأجرت استجوابات وحشية في مكان اعتقالهم، واحتجزت بدون تمييز مجموعات كبيرة من الرجال العراقيين، وأطلقت وابلاً مفرطاً من النيران المضادة للبطاريات، وحرمت المتمردين المصابين من العلاج الطبي.[19]

ربما كانت هذه الصورة القبيحة مبالغاً فيها بعض الشيء. ومع ذلك، فإنها توحي بأن مشكلة التكتيكات الخرقاء، التي تأتي بنتائج عكسية واتخاذ القرار الأخلاقي السيئ، ربما كانت متوطنة في هذه الوحدة. وبفضل هذه المشكلة الأساسية، حتى لو كان موت زيدون مختلقاً، فإن الفضيحة الناجمة عنه قوّضت مصداقية التحالف إلى درجة ربما تجاوزت أكثر أحلام أي متمرد في سامراء جموحاً.

وفي نهاية الأمر، تعلم اللواء الحديدي في العراق أن تحقيق نجاح مستديم لا علاقة تذكر له بتكنولوجيا المعلومات المكلفة، بل لا علاقة له بدرجة أقل بمعرفة مواقع الوحدات الصديقة على وجه الدقة، ولا علاقة له مطلقاً بالقدرة على رصد تشكيلات كبيرة للدبابات من

الجانب الآخر للكرة الأرضية. وبدلاً من ذلك، فإن تحقيق نجاح دائم، يحتاج من اللواء إعادة النظر في تنظيماته وأساليبه.

بل الأهم من هذا وذاك، سيحتاج اللواء الحديدي إلى إعادة النظر في قدر الأهمية الذي يوليه للسلوك الصحيح.

المبادئ الأخلاقية وعصر المعلومات

يصعب القول بأن اللواء الحديدي في الفرقة الرابعة مشاة كان وحده في نضاله من أجل التكيف مع الأعمال الحربية في القرن الحادي والعشرين. إن قصة هذا اللواء هي تقريباً قصة جيشنا. وذات مرة علق دونالد رامسفيلد على ذلك بمقولته الشهيرة، "أنت تذهب إلى الحرب بالجيش الذي لديك... وليس بالجيش الذي تريد أو قد ترغب فيه في وقت لاحق".[20] وكان يمكن لرامسفيلد أن يكون أكثر نزاهة فكريا لو أنه قال بدلاً من ذلك، إنه عندما تختار حرباً ما، فلن تحصل دائماً على الحرب التي اعتقدت أنك اخترتها أو كنت ترغب فيها.

ونحن بالتأكيد لم نحصل على الحرب التي توقعناها في العراق وأفغانستان. وأكثر ما يثير الدهشة، حين نستعيد أحداث الماضي، إزاء ما سماه كلوزفيتس "بطبيعة" كل من هاتين الحربين، هو أنها فاجأتنا على حين غرة. وإن كنا قد قرأنا الطالع على نحو ملائم، فلربما رأينا أن حرب فيتنام وليس حرب الخليج هي النذير الحقيقي لما هو آت.

واليوم، فإن الحكمة التقليدية تقول بأن جيشنا لم يخسر أي معركة في فيتنام، ولكن بلادنا خسرت الحرب مع ذلك. ونظراً لأن الكتائب والسرايا خسرت الاشتباكات فعلاً في تلك الحرب، فإن هذه المقولة مبالغ فيها.[21] ولكنها، مع ذلك، ليست مبالغة كبرى. أكثر من ذلك، أنها أقرب ما تكون لتوصيف وضعنا المحفوف كثيراً بالمخاطر في أحدث نزاعاتنا العسكرية.

ففي العراق وأفغانستان، أكثر بكثير مما كان الحال في فيتنام، لم ينهزم الجيش الأمريكي بقوة السلاح. كثيراً ما تخلى عن بعض الأراضي، بل وخسرت بعض الفصائل

جيم غارامون، وزارة الدفاع

جنرال سلاح الطيران ريتشارد بي. مايرز (وسط) ينصت إلى إيجاز من العقيد بالجيش فريدريك رودسهايم (يمين) والمقدم نيت ساسامان في المقر الرئيسي للكتيبة الأولى، اللواء الثامن مشاة في بلد بالعراق عام 2004. وخلف مايرز يقف الرائد راي أوديرنو قائد الفرقة الرابعة مشاة.

مكتبة الكونغرس 128831-LC-USZ62

جورج واشنطن وضباط آخرون في الجيش القاري يصلون إلى نيويورك وسط جمهور مبتهج، 25 تشرين الثاني/ نوفمبر 1783. إن الجيش القاري لم يفز في الحرب وحسب، وإنما أثبت أنه يمكن الفوز بها بأسلوب يتناسب مع مُثل التنوير وهي الحرية وحقوق الإنسان.

بضعة مناوشات. كما كانت هناك اشتباكات متعادلة على مستوى السرايا. ومع ذلك، لم يكن أمام المتمردين العراقيين أو مقاتلي طالبان خيار الاحتفاظ بأي أرض اختار جيشنا التنازع عليها. ومع ذلك، لم تكن هناك أهمية تُذكر لتفوقنا الساحق في القوة القتالية. وتمكنا مع ذلك من تحمل هزائم أليمة في هاتين الدولتين، مثلما حدث في فيتنام، وكدنا أن "نخسر" الحرب- وربما نخسرها.

وبفضل الكمبيوتر الشخصي، والانترنت، وهواتف الأقمار الصناعية، والكاميرات الرقمية، وطائفة من أجهزة الاتصالات الأخرى الفائقة السرعة، يمكن أن يعرف العالم الذي يراقبنا سوء سلوك الجنود الأمريكيين على نحو أسرع، وكامل، وصارخ عما كان عليه في الماضي. وتلهم تقارير سوء السلوك هذه مقاتلي العدو، وتقدم كهدية لأعدائنا، وتحول السكان المحليين ضدنا، وتقلص الدعم في الداخل لسياستنا الخارجية، وتقوض العلاقة بين بلدنا وحلفائها.

إن الروايات الأليمة بالذات تحظى بكثير من الدعاية السلبية التي تلقي سوء السمعة الذي كانت توصف به في السابق الهزائم الكبرى للحملات التاريخية. وبدلاً من النكسات في ممر كاسرين أو غابة هورتغن، يتحدث العامة اليوم، مع ذلك، عن أسماء أماكن مثل غوانتانامو، أو أبو غريب، أو بغرام، أو سامراء، أو المحمودية، أو كندوز.[22]

لم تقع هذه الهزائم على أيدي أعدائنا. فمن المحزن، أننا أوقعنا هذه الهزائم على أنفسنا، من خلال أعمال غير أخلاقية. لذلك، لن أنظر لبقية هذه المقالة خارج جيشنا إلى المعارك الدائرة في أفغانستان أو العراق لنفهم ما نحتاج إلى عمله لتحقيق النجاح في ميدان القتال. وبدلاً من ذلك، سأنظر داخل صفوفنا، إلى حيث يختبئ العدو الأكثر خطورة. ولن يكون تحقيق هذا النصر الداخلي عسيراً إذا بذلنا جهداً حقيقياً. فبعد كل شيء، كنا في أفضل حالاتنا، جيشاً يضرب بجذوره في المبادئ الأخلاقية.

من نحن، في أفضل حالاتنا

إن الهزائم الأخلاقية التي منينا بها حتى الآن في الحرب على الإرهاب تنطوي على مفارقة مؤلمة، بالنظر إلى التاريخ الأبي لجيشنا.

لم يشكل أي جيش على الإطلاق خطراً وجودياً أكبر مما شكله الجيش البريطاني القوي على ميلاد أمتنا الوليدة. ومع ذلك، فخلال الحرب الثورية، كان قادة الجيش القاري

...تضمن ميثاق الشرف الذي وضعه ليبر قائمة طويلة من القواعد التي أكدت على ضرورة أن تعامل قوات الاتحاد غير المقاتلين وأسرى الحرب على حد سواء معاملة إنسانية.

والكونغرس مصممين ليس على كسب الحرب وحسب، وإنما أيضاً على أن يتحقق ذلك بطريقة تنسجم مع مبادئهم الأخلاقية والإيمان المحوري بحقوق الإنسان.[23] لقد وضع الجنرال جورج واشنطن شروطاً في هذا السياق من خلال القدوة الشخصية والأوامر العسكرية. فقد أمر واشنطن، مثلاً، في أمر كتابي، بمعاملة 211 أسيراً بريطانياً "بإنسانية" وألا يكون لديهم "سبب للشكوى من محاكاتنا للنموذج الوحشي للجيش البريطاني في معاملته لإخواننا التعساء".[24] ونتيجة لذلك، مارس الجيش القاري معاملات إنسانية لم تكن شائعة في ذلك الزمان. وخلال أكثر من قرنين مرا منذ مولده، قام الجيش بمعظم حملاته في نطاق التقليد الإنساني هذا.

ومع ذلك، يضم جيشنا تقليداً أقل هيمنة أخلاقية. في إطار هذا التقليد الآخر، ترجح كافة الخير الأكبر المتصور على حقوق الأفراد. ويجادل هذا المنظور، بالذات، بأن الغاية تبرر الوسيلة عندما تؤدي هذه الغاية إلى تحقيق نصر أو إنقاذ أرواح أمريكيين. وكثيراً (وليس دائماً)، ما كان للعنصرية دخل في تبنينا لهذا المنظور. فقارن، مثلاً، ضبط النفس الذي تحلى به الجيش القاري حين قاتل الجيش البريطاني بمعاملة الجيش القاري لقبيلة أروكواس الهندية. أو، شاهد معاملتنا الهمجية أحياناً للفلبينيين خلال الحرب الفلبينية الأمريكية، واليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية، ومواطني جنوب شرق آسيا خلال حرب فيتنام.

لقد سجلت واحدة من التعليمات الرائعة للجيش ليس هذين التقليدين وحسب، وإنما عكست أيضاً الترتيب النسبي لأسبقيتهما.

في تموز/ يوليو 1862، عُيّن الجنرال هنري هوليك قائداً عاماً لقوات الاتحاد. وخلال ذلك الصيف الحار، الفظيع الأول للحرب الأهلية، شعر هوليك باطراد بالإحباط تجاه المتمردين. وسعى، بخلفيته كمحام، إلى استيضاح الكيفية التي يجب أن يتعامل بها الجيش مع النظاميين الكونفدراليين. ونفس عن ذلك بقوله في رسالة إلى أحد العلماء، "تدعي سلطات المتمردين أن لها الحق في إرسال رجال، في ملابس مواطنين سلميين، لنصب كمائن لقواتنا وقتلهم، وإحراق الجسور والبيوت وتدمير الممتلكات والأشخاص داخل خطوطنا".[25]

وكان العالم الذي كتب له الخطاب هو الدكتور فرانسيس ليبر، من المحاربين القدامى في معركة ووترلو المولود في بروسيا وأستاذ العلوم السياسية بكلية كولومبيا.[26] وقد قبل ليبر تحدي هوليك لوضع ميثاق شرف ينظم سلوك جيش الاتحاد في الحرب. وفي نيسان/ إبريل 1863، وبعد مراجعته من قبل لجنة من الجنرالات، وافق الرئيس أبراهام لينكولن على «ميثاق ليبر». ونشر أخيراً «كأمر عام رقم 100» في أيار/ مايو 1863.

كان ليبر يأمل، فوق أي شيء آخر، أن يرشد ميثاقه جيش الاتحاد إلى ممارسة ضبط النفس في ميدان القتال على نحو يتسم بالحكمة والتعاطف.[27] ونتيجة لذلك،

تضمن ميثاق الشرف الذي وضعه ليبر قائمة طويلة من القواعد التي أكدت على ضرورة أن تعامل قوات الاتحاد غير المقاتلين وأسرى الحرب على حد سواء معاملة إنسانية. ومنع ميثاق ليبر استخدام أساليب معينة في ميدان القتال منعاً باتاً، مثل التعذيب، واستخدام السموم، ورفض إيواء الجنود المستسلمين أو حرمانهم من المعاملة الرحيمة.[28]

وبعد مرور عقود على انقضاء الحرب، أصبح هذا الميثاق الوثيقة المصدرية الرئيسية لواضعي مسودة معاهدتي لاهاي لعامي 1899 و 1907.[29] لذلك، فإن باستطاعة الجنود الأمريكيين اليوم أن يؤكدوا عن حق وبكل فخر أن جيشهم العظيم لم يكن وحسب الجيش الأول الذي يضع ميثاق شرف لقانون الحرب، ولكن جيشهم ساعد أيضاً في بلورة الشكل النهائي الذي اتخذه هذا القانون من خلال معاهدة دولية.

ومع ذلك، كان تحت التيار الواضح للمبادئ الإنسانية لميثاق ليبر، تيار تحتي قوي لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة. وأتاح ميثاق ليبر للقادة، في عدد من الحالات، خيار انتهاك قاعدة ما إذا استدعت "الضرورة العسكرية" لذلك. فالمواطنون غير المسلحين، على سبيل المثال، "يمكن أن يُجنبوا في الأذى شخوصهم، وممتلكاتهم، وشرفهم"، ولكن فقط طالما "تسمح مقتضيات الحرب بذلك".[30]

وهذا التوتر بين تقاليدنا الأخلاقية السائدة والتابعة لم يمكن إزالته بشكل كامل على الإطلاق. ففي أوائل

أود فيفير، لا يريد مصور ومرخص هذه الصورة هذا المقال

عشرات الآلاف شاركوا في احتجاج ضد حرب العراق في 27 كانون الثاني/ يناير 2007 في واشنطن، دي سي. كان منظمو الاحتجاج، المتحدة للسلام والعدالة، ينوون حث الكونغرس المنتخب حديثاً بقوة على إنهاء الحرب. ومن شأن الظروف السياسية المواتية في العراق (أهمها "الصحوة السنية")، مدعومة بزيادة في القوات وأساليب أكثر فعالية لمكافحة التمرد، أن تحول دون القيام بانسحاب متهور.

عـام 2002، مثـلاً، سـمح الرئيـس جـورج دبليـو. بوش ودونالد رامسـفيلد بإجازة أساليب الاستجواب القاسية بتوقيعهمـا على سياسـات، جـاء فيها، أنـه في حالات "الضرورة العسـكرية"، لا يستدعي الأمر معاملة طالبان والقاعدة طبقاً لمواثيق جنيف.[31]

وبفضل فضائح التعذيب اللاحقة وغيرها من الروايات المفزعـة عن القـوات الأمريكيـة المسـعورة، لا غرابة في أن بعـض المراقبين الخارجيـين يعتقدون أن جيشـنا تحول إلـى جيش غير أخلاقـي. ومثل أولئـك المراقبين الخارجيين مخطئـون. فـكل من احتـك بالجيش الأمريكـي يدرك أن سـلوك الغالبية العظمى من الجنود فـي ميادين القتال اليوم يتسـم بالشـرف. ومما يثير الخوف، مع ذلك، التفكير فـي أن مثل أولئك المراقبين ربما كانوا قاب قوسـين أو أدنى من الصواب.

مبادئ أخلاقية مهنية في خطر

مع الإدراك المتأخر، يبدو واضحاً تمام الوضوح أن الأخلاق المهنية لجيشـنا تصادف متاعب منـذ دخلنا القرن الحادي والعشرين. ويرجع ذلك جزئياً إلى نجاحنا في حرب الخليج، حيث اعتقدنـا أن باسـتطاعتنا تجاهل البعد الإنسـاني والأخلاقـي للحرب، معتمدين بدلاً من ذلك على أسـلحة

"...لقـد نجح تكليف قائـد الكتيبة بأن يتحـدث إلى كل جندي عـن العودة إلى الوطن دون أن يمس شرفهم".

وأنظمـة اسـتخبارات ذات تقنية عاليـة.[32] إن تجربتنا في لبنان، ومقديشـيو، والبلقان شجّعت على مبدأ «حماية القـوة بأي ثمن» في عقلية بعض القادة، الذين دعوا فيما بعد إلـى «نزع القفـازات» أثنـاء الاسـتجوابات من أجل إنقـاذ أرواح القوات الأمريكية.[33] كذلك، دفعنا التخطيط العملياتـي المبنـي علـى الآثار إلـى التعود علـى تقييم الأعمال المقترحة على أساس الآثار المتوقعة وحسب، بدلاً من رفض بعض الأعمال فوراً على أساس المبدأ.[34]

إن الضرر الذي لحق بالأخلاق المهنية لجيشنا عميق. فلا يزال الضباط والجنود يتجادلـون حول ما إذا كان التعذيب صوابـاً في بعض الظـروف أم لا، وهناك الكثيـرون الذين يدافعون عن الآثام التي ارتكبها قادة سابقون في الجيش، مـن أمثال المقدم ساسـامان، والمقدم ألين وسـت، وكبير ضباط الصف لويس ولشوفر.[35]

وكدليـل على عمـق المشـكلة، أورد اسـتطلاع حول الصحـة العقليـة للجنود ومشـاة البحرية فـي العراق أجرته وزارة الدفاع خريف عام 2006 النتائج التالية:

وافـق 47 فـي المائة فقط من الجنـود و38 في المائة من مشاة البحرية على ضرورة معاملة غير المقاتلين بكرامة واحترام. وأفاد أكثر من ثلث جميع الجنود ومشـاة البحرية بضرورة السماح بالتعذيب لإنقاذ حياة زميل جندي أو من مشـاة البحرية، بينما قال أقل من نصف الجنود ومشـاة البحرية أنهم سـيبلغون عن أحد أفـراد الفريق إذا اقترف سـلوكاً غير أخلاقي. كذلك، أفـاد 10 في المائة من الجنود ومشـاة البحرية بأنهم أسـاءوا معاملة غيـر مقاتلين أو أتلفوا ممتلكات بدون داع.[36]

انزعـج الجنرال ديفيـد بتريوس، قائد قواتنا المسـلحة فـي العراق في ذلـك الوقت، وهو محق في ذلك، بسـبب نتائج هذا الاسـتطلاع. ورداً عليه، كتب رسـالة مفتوحة إلـى أعضاء قيادتـه. قال بتريوس في رسـالته، إن القوات الأمريكية ستفشـل في مهمتهـا إذا عجزت عن أن تبيّن للعراقيين أنهم، وليس أعداءهم، الذين تعاملهم القوات الأمريكية "بأفضل المعايير الأخلاقية".[37]

وبينمـا اتخذنا في الآونة الأخيرة خطوات كجيش للأم الجـراح التي أصابت أخلاقيات المهنـة، فإن عملية الالتئام هـذه كانت بطيئة على نحو مؤلم. من بين تلك الخطوات

إجراء مراجعة جوهرية لعقيدتنا العسكرية، التي هي اليوم أكثر صرامة، واتساقا"، ولا لبس فيها فيما يتعلق بالسلوك في ميدان القتال مما كانت عليه قبل خمس سنوات فقط.

ثمة خطوة هامة أخرى وهي رفع مستوى الدروس الأخلاقية في عمليات التدريب الأساسية: فجميع المتدربين يحملون الآن بطاقة تسمى "قواعد الجندي" (وهي نسخة مختصرة من قانون الحرب)، ويتلقى كل متدرب من 35 إلى 45 ساعة من التدريب المبني على القيم.[38] كذلك، وهو أمر مبشر، أقام الجيش في أيار/ مايو 2008 مركز مهنة وأخلاقيات الجيش بغرض دراسة، وتحديد، ونشر أخلاقياتنا المهنية.[39] ومما هو مبشر بنفس القدر، أن جيشنا وصف 2011 بأنها، «سنة مهنة حمل السلاح» (بتفويض واضح بتنمية الأخلاقيات المهنية)، وهو مؤشر قوي على أن قيادة الجيش تنوي من أجلنا أن يكون أداؤها أفضل في هذا المجال.

ونحن في حاجة لأن يكون أداؤنا أفضل. من بين تلك المجالات التي يجب أن نحسّن فيها أداءنا مجال مهنة الضابط، كما أثبتت أحداث في أماكن مثل غوانتنامو، وأبو غريب، وبغرام، وسامرّاء.

إن المشكلة التي لا تزال أعمق تكمن، مع ذلك، في الثقافات الفرعية الكامنة داخل جيشنا العامل. ففي أخلاق تكتيكية: السلوك الأخلاقي في ساحة المعركة مع المتمردين، يطرح الضابط السابق في فرقة العمليات الخاصة بالبحرية الأمريكية ديك كوتش حجة دامغة بأن المجندين الجدد اليوم يغادرون تدريبهم العسكري المبدئي بمفهوم مستفيض حول القيم العسكرية، ولكن عندما يلتحقون بالوحدات العملياتية، ربما يدخلون ثقافة الوحدة الصغيرة التي تختلف عما تريده القيادات الأعلى. ويجادل كوتش، بأن الثقافة الفرعية الخطيرة المحتملة، ترجع عادة إلى عنصر أو عنصرين رئيسيين مؤثرين (من المتمردين على الأخلاق) يحمل أعضاء الوحدة على الإذعان بالصمت أو يطلب منهم ذلك.[40] وبالنظر إلى أن الجنود الشباب يريدون الاتساق مع وحداتهم الصغيرة، فإنهم عادة ما يتكيفون.[41]

إن كوتش على حق. وليس سجن أبو غريب، وهو المثال الأكثر تطرفاً الذي كان يديره متمردون على الأخلاق، المثال الوحيد. فالواقع، لا نبالغ القول بأن جميع الهزائم الأخلاقية الكبرى التي لحقت بنا حتى الآن في الحرب على الإرهاب كانت تنطوي، بدرجات متفاوتة، على ثقافات فرعية ضارة. ولتحاشي هزيمة في المستقبل، علينا أن نصحح السلوك الصحيح على مستوى الوحدة الصغيرة.

وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا في المقر الرئيسي.

التدريب الثقافي الذي تدعو له الحاجة القصوى

في السنوات الأخيرة، أولى جيشنا اهتماماً متزيداً بالحاجة إلى أن يفهم الجنود المنتشرون الثقافة المحلية. ويتلقى جميع الجنود المنتشرين الآن في العراق وأفغانستان دورات تثقيفية في الثقافة واللغة، تتولى تدريسها عادة فرق خبراء من قاعدة فورت هاوتشوكو أو معهد الدفاع للغات. وعلى نفس القدر من الأهمية، يتولى "فريق التضاريس البشرية" وهو مؤلف من خمسة خبراء في علم الإنسان والعلوم الاجتماعية الآن دعم قائد كل لواء قتالي منتشر. والواضح أن التركيز على هذا الموضوع شيء جيد. فبعد كل شيء، ليس من النادر أن يعمل الجنود وفق التطبيق الكامل للقانون والتوقعات المهنية لجيشنا، ولكنهم، ومع ذلك، يقوضون الدعم الشعبي لأمريكا في الخارج من خلال انتهاكات غير مقصودة للعادات الدينية، أو العرقية، أو المحلية.

سيظل التدريب الثقافي ذا صلة بنجاحنا في عصر المعلومات، ولكن يجب أن يشمل أيضاً تدريباً في الموقع الرئيسي يبنى الثقافات الأخلاقية داخل الوحدات العملياتية، لا سيما داخل الوحدات الصغيرة. وفيما يلي بضعة مقترحات:

● يجب أن تكون قيم الجيش، وقانون الحرب، والتدريب على قواعد الاشتباك من اختصاص القيادة. فحجم أثر هذا التدريب يختلف تماماً عندما يتولاه قائد أو ضابط وحدة كبير بدلاً من أن يتولاه أحد المحامين. فالمحامون يجب أن يساعدوا في تطوير هذا التدريب، بل ربما يدرّسون جزءاً منه. غير أنه على مستوى الوحدة الكبيرة، يجب أن يُطلب من القائد، أو الضابط التنفيذي، أو ضابط العمليات قيادة هذا التدريب. وكما قال الرائد توني سوتزي، الضابط التنفيذي لسرب الفرسان بالفريق القتالي للواء الأول بالفرقة الأولى مشاة: «أعتقد أنني إنسان بسيط، ولكن من واقع خبرتي القتالية، فإن فكرة أن يتحدث قائد الكتيبة مع كل جندي حول العودة إلى أرض الوطن دون المساس بشرفه، صادفت نجاحاً».[42]

● يتعين أن يولي جيشنا العامل كل اهتمامه بالتدريب الأخلاقي على مستوى الوحدة الصغيرة. ويجب على القادة أو غيرهم من كبار الضباط القتاليين أن يقودوا المناقشات المبدئية حول المبادئ الأخلاقية، التي تحدد عندئذ مسار مناقشات أطول، ومنفصلة داخل الوحدات الصغيرة. ويجب على قائد الفصيلة، أو الحضيرة، أو الفريق أن يقود وحدته الصغيرة في هذه المناقشات المنفصلة.

● ويجب أن تكون المناقشات داخل الوحدات الكبيرة والصغيرة مبنية على سيناريوهات، مع قضاء معظم الوقت في مناقشات سقراطية وليس على مجرد مشاهدة سلبية لعروض شرائح الباور بوينت. علاوة على ذلك، يتعين دمج ضبط النفس الأخلاقي في التدريب العملي على القتال، مثل منصات الدبابات، والتدريب القتالي التلاحمي في الحارات الحضرية، وممارسة عمليات الاستجواب. وقال ماثيو ألكزاندر، المؤلف المرموق والمحقق الذي قاد القوات الأمريكية إلى الزرقاوي، "إنه متى شاهد المحققون التابعون لي بأعينهم مزايا تقدير الجوانب الإيجابية للثقافة الإسلامية، تحولوا بسرعة [عن استخدام التكتيكات القاسية]".[43]

● ويجب أن يكون المحامون جزءاً من طاقم التدريب الأخلاقي، وليس مجرد مؤيدين له. أولاً، فإن ما هو قانوني من الناحية الشكلية ليس هو الصواب بالضرورة. "فالقرارات الأخلاقية هي ببساطة أهم من أن تترك فقط للمحامين"، وفق حكمة قالها مرة المؤرخ البارز مايكل إجناتيف.[44] والأهم من ذلك، أنه بالنظر إلى أن المحامين ليسوا مشاركين في العملية القتالية، فإنهم ليسوا المدربين المؤهلين للإشراف على تدريبات قتالية عملية بأسلحة وعلى المشاركين فيها. وبالنظر إلى أن رجال الدين لا يحملون حتى أسلحة، فإنهم يمثلون اختياراً أسوأ لتوفير إشراف من هذا القبيل.

● ولضمان إدماج النظرية والممارسة الأخلاقية في التدريب على نحو فعّال، يجب أن يكون لدينا طاقم تدريب شامل على الإلمام بالاثنتين. فلماذا لا نعيّن خبراء في المبادئ الأخلاقية داخل الألوية، والمجموعات، والكتائب، لضمان تحقيق ذلك الدمج تحت إشراف ضابط العمليات؟ كما يجب تعيين مدربين إضافيين في المبادئ الأخلاقية على مستوى السرية. ويوفر هؤلاء الخبراء والمدربون في المبادئ الأخلاقية إشرافاً للقادة، بما في ذلك العمل على دمج المقالات الأخلاقية الصغيرة وعملية صنع القرار الأخلاقي بصورة كاملة في جميع الدورات التدريبية.

● ولا يشغل التعيينات في الطاقم المتخصص في تدريس المبادئ الأخلاقية سوى كبار ضباط الوحدات. وعلى مستوى اللواء، أو الجماعة، أو الكتيبة، سيكون ضابط العمليات، أو مساعد ضابط العمليات، أو رئيس رقباء العمليات اختياراً جيداً. وعلى مستوى السرية، يجب أن يكون الضابط التنفيذي أو الرقيب الأول.

● ولإعداد قادة التدريبات الأخلاقية المعينين، يجب أن يحضروا دورة للمبادئ الأخلاقية تستمر من أسبوعين إلى أربعة أسابيع، وهي دورة لم يتم تنظيمها بعد. ويمكن أن تكون هذه الدورة مستقلة، أو جزءاً من دورات قائمة بالفعل للضباط التنفيذيين، وضباط العمليات، والرقباء الأول.

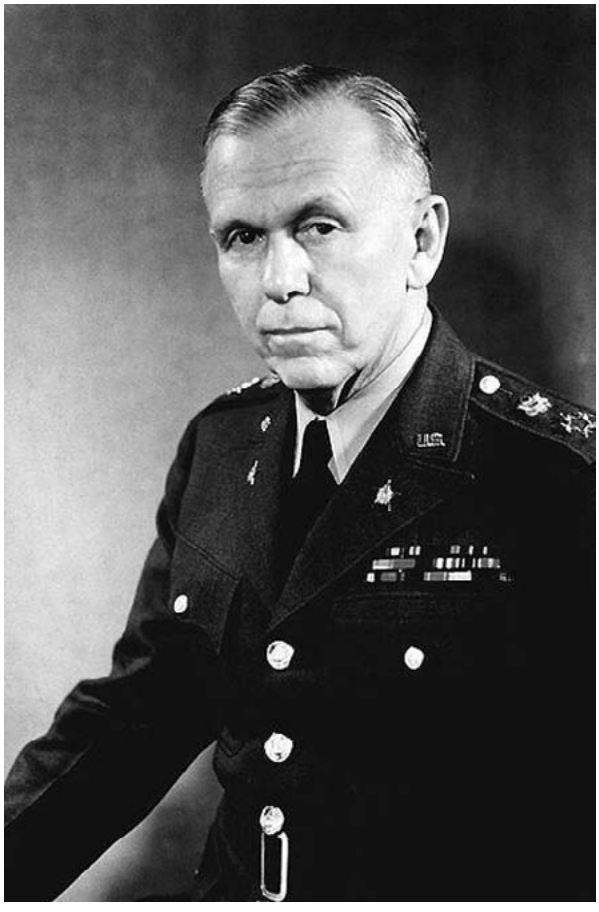

الجيش الأمريكي

جورج سي. مارشال، جنرال بالجيش، 1942

● ويجب أن تكون المرحلة الأولى من هذه الدورة "نظرية"، يمكن أن يتولى التدريس فيها محامون، وأكاديميون، وأخصائيون في الصحة العقلية، وقادة عسكريون سابقون. أما المرحلة الثانية من الدورة فستكون تطبيقية. وقد نظم مركز مهنة وأخلاقيات الجيش دورة نظرية تستمر أسبوعا للمدربين الأخلاقيين يمكن أن تعمل كأساس للمرحلة الأولى، وبالنسبة للمرحلة الثانية، يمكن الاستعانة بخبرة شركة مثل شركة الدفاع المتلاحم (CQD®) في وضع المنهج الدراسي، وبناء المنشآت، و«تدريب المدربين».[45]

● وبصورة عامة، يتلقى الضباط تدريباً كافياً على المبادئ الأخلاقية في موقع تكليفهم، سواء كان الموقع وست بوينت، أو كلية عسكرية، أو برنامج فيلق تدريب ضباط الاحتياط. ومع ذلك، فإن ملازماً حديثاً جداً عمره 22 عاماً ربما يواجه نفس المشاكل للوقوف بحزم في مواجهة الثقافة الفرعية غير الأخلاقية للوحدة التي يواجهها مجند عمره 22 عاماً، حتى إذا كان هذا الملازم القائد المعين للوحدة.[46] ولتعزيز العمل الضباطي تعزيزاً جيداً، علينا أن نركز أكثر على تدريب الضباط على تدعيم فهمهم الأخلاقي والتزامهم بعد تكليفهم. وسوف يساعد في ذلك العمل على قيام كبار القادة بقيادة التدريب الأخلاقي في الموقع الرئيسي. إن تعزيز أخلاقيات مهنتنا العسكرية يجب أن يكون العمود الفقري لأي برنامج تنمية مهنية للضباط. إضافة إلى ذلك، من الضروري أن تسهم مدارس الخدمة التابعة لنا على نحو أكثر في هذا الخصوص. فمثلاً، بعد أن يقضي الضباط الميدانيون سنة في كلية القيادة والأركان العامة، يتلقون أربع ساعات فقط من تدريبات تتعلق بالمبادئ الأخلاقية. وهي مدة غير كافية على نحو يُرثى له، بالنظر إلى الطبيعة الأخلاقية لهزائمنا في السنوات الأخيرة.[47]

الثورة الحقيقية

لقد كنا في العراق وأفغانستان، قاب قوسين أو أدنى على نحو مؤلم من الفوز في كل معركة ولكننا مع ذلك "نخسر الحرب". وحتى اليوم، فإن نتيجة هذين النزاعين لا تزال موضع شك كبير. فرغم أن العراق مستقر على نحو أكثر بكثير مما كان عليه قبل سنتين، ثمة احتمال مع ذلك في أن يتحول إلى حرب أهلية. وفي أفغانستان، بينما تجدد الأمل في تحقيق سلام مشرّف نتيجة الزيادة الأخيرة في القوات، فإن أفضل ما يوصف به هذا النزاع في الوقت الحاضر هو أنه وصل إلى طريق مسدود.[48]

ومن بين الأسباب الحاسمة لمأزقنا الحالي هو التعاقب المأسوي للهزائم الأخلاقية التي لحقت بنا على هاتين الساحتين القتاليتين التوأمين. فقد عززت هذه الخسائر

المخجلة تصميم أعدائنا على تحقيق النصر وقوّضت إرادة الشعب الأمريكي في الداخل على تحقيق الشيء ذاته. ومثل هذه الهزائم محزنة على نحو خاص بالنظر إلى التاريخ الفخور لجيشنا في السلوك السليم في ميدان القتال.

تحدث الجنرال جورج مارشال (النموذج المثالي لمهنة الضباط المبنية على المبادئ، الذي وصفه ونستون تشيرشل بأنه "ذلك الروماني النبيل") عن "الوحش داخلنا" الذي يظهر داخل الفرد أثناء القتال. وخلال الحرب العالمية الثانية، كان مارشال أكثر انشغالاً بكيفية التحكم في هذا الوحش من أجل المحافظة على نظام وانضباط جيدين داخل الصفوف. ومع ذلك، ففي عصر المعلومات، عندما يستحوذ هذا الوحش على المرء، فلربما يظهر متمرد داخل صفوفنا يكون أكثر خطورة من الناحية السياسية من أي متمرد نواجهه بأسلحة في ميدان القتال - وهو المتمرد على الأخلاق.

ولهزيمة هذا المتمرد البالغ الخطورة، يجب أن تتعلم الثقافة العملياتية لجيشنا أن السلوك الصحيح في ميدان القتال أهم الآن من أي شيء آخر نفعله. ولا يمكن للسلوك الجيد بحد ذاته أن يحقق السلام، الذي غالباً ما يتوقف على ظروف استراتيجية لا نتحكم فيها نحن الجنود. ولكن السلوك السليم في ميدان القتال، حين يقترن بأهداف وتكتيكات صحيحة، يهمّش المتمردين بالفعل بأن يحرمهم من الدعم الشعبي الذي يحتاجونه للبقاء على قيد الحياة. لذلك، وفيما يبدو أحيانا أنه غير واقعي بالنسبة لنا نحن الذين خدمنا في تسعينات القرن العشرين، فإن إسهام تكنولوجيا ميدان القتال، والعربات المدرعة، والمدافع، وميادين إطلاق النار في نجاح مهمتنا اليوم أقل من إسهام السلوك الأخلاقي لقواتنا.

ليس معنى هذا أن وسائلنا التقليدية لشن الحرب لم تعد هامة. إنها هامة بالطبع. فبعض الجنود لا يزالون يجدون أنفسهم في أوضاع يشعرون فيها، فوق أي شيء آخر، بالابتهاج لأنهم يحملون أسلحة جيدة يعرفون كيف يستخدمونها. وأحياناً، تكون الشراسة المحسوبة مطلوبة من الجنود. غير أن السلوك في القرن الحادي والعشرين، ليس مهماً وحسب في بعض الأحيان؛ إنما هو مهم على الدوام، وهذه الأهمية سوف تواصل النمو مع تحسّن تكنولوجيا المعلومات. وفي المستقبل، حتى الحروب التقليدية سوف تشن - على الأقل إذا واصلت ديمقراطيات ناضجة مثل الولايات المتحدة هذه الحروب - انطلاقاً من حاجة عملية صرفة طبقاً لمبادئ أخلاقية، من بينها قانون الحرب.[49] وفي معرض قدرتها على فرض سلوك مقبول اجتماعياً في ميدان القتال على أفراد القوات المسلحة لدولة ديمقراطية، باتت تكنولوجيا المعلومات أعظم عنصر يحقق المساواة بين كافة أشكال الأعمال الحربية.

وسواء الإعداد لحروب تقليدية أو غير تقليدية، لم يعد في وسعنا السماح للأسلحة والبراعة القتالية أن تصم آذاننا عما أصبح هو الأهم، وتهدمنا فوق أنقاض الصخور بينما العالم يتفرج علينا، مثلما حدث لمن أنصت لأغنية السيرانة الأسطورية. علينا أن نضع السلوك السليم في ميدان القتال على قمة الأولويات التعليمية والتدريبية لجيشنا.

وفي ملاحظة أخيرة، ربما كان مفهوم "ثورة في الشؤون العسكرية" أكثر التعبيرات استهلاكاً في الكتابة العسكرية اليوم. غير أنه بالنظر إلى أنني بدأت هذه المقالة بإساءة استخدام واحدة للعبارة، فمن المجدي الإشارة إليها مرة أخرى. فبعد أن أنفقنا مليارات الدولارات على تحقيق تفوق تكنولوجي كاسح على جيوش دول أخرى، ألا تكون مفارقة إذا أدركنا أن أهم مكون أساسي للثورة في الشؤون العسكرية، في القرن الحادي والعشرين، هو أن نتذكر ببساطة، أننا في أفضل أحوالنا جيش يتحلى بالمبادئ؟ إذا كان من الضروري أن يكون هذا الدرس نقطة البداية لأي ثورة عسكرية مجدية، فمن المؤكد أن الأوان لم يفت بعد لنتعلمه. **ميليتاري ريفيو**

ملاحظات هامشية

1. ماثيو إلكزاندر، "شهادتي المكتوبة إلى جلسة استماع اللجنة القضائية بمجلس الشيوخ"، ذى هافينجتون بوست، 13 أيار/ مايو 2009، http://www.huffingtonpost.com/matthew-alexander/my-written-testimony-to-t_b_203269.html (28 حزيران/ يونيو 2010). حين أشار إلى "السيطرة" على الوحش داخلنا، كان مارشال يشير بذلك إلى التحكم في شراسة الجنود الأمريكيين وليس القضاء عليها. وهذا أيضاً ما قصدته في هذه المقالة: ومثلما يدرب المدربون الصقور، يجب أيضاً تدريب المشاعر العنيفة التي تعتمل في صدور الجنود المحترفين أثناء القتال حتى لا تصيب سوى الأهداف الصحيحة. وبخلاف الصقور، فإن البشر، مع ذلك، مدربون من خلال ما هو أكثر من التكيف الجسدي البسيط؛ علينا أيضاً أن نتعلم التواصل مع ملكاتنا العقلانية والعاطفية.

2. هذا السرد الافتتاحي مبني على خبراتي الخاصة كضابط مخابرات مساعد باللواء أثناء هذا التدريب.

3. ديسكتر فيلكينز، "سقوط الملك المحارب"، نيويورك تايمز، 23 تشرين الأول/ أكتوبر 2005، http://www.nytimes.com/2005/10/23/magazine/23sassaman.html?_r=1 (28 حزيران/ يونيو 2010)، 1.

4. نفس المرجع السابق، 2.

5. نفس المرجع السابق.

6. نفس المرجع السابق.

7. نفس المرجع السابق.

8. نفس المرجع السابق.

9. نفس المرجع السابق، 12.

10. نفس المرجع السابق،10.

11. نفس المرجع السابق، 11-12.

12. نفس المرجع السابق، 10-11.

13. نفس المرجع السابق، 11-12.

14. نفس المرجع السابق.

15. في ذلك الوقت، كان هناك بعض البلبلة حول ما إذا كان "المقاتلون غير الشرعيين"، وهي فئة صاغتها إدارة جورج بوش لوصف المتمردين المسلحين، يتمتعون بحق الحماية بمقتضى مواثيق جنيف. كان ذلك راجعاً إلى سياسات وقعها الرئيس بوش ووزير دفاعه دونالد رامسفيلد، في أوائل 2002، حرمت أعضاء القاعدة وطالبان من هذا الحق في حالات "الضرورة العسكرية". وفي قرارها التاريخي في 29 حزيران/ يونيو 2006، فصلت المحكمة الأمريكية العليا في قضية حمدان ضد رامسفيلد، بأن من حق المقاتلين غير الشرعيين الحصول على الأقل على الحماية التي تمنحها المادة 3 من مواثيق جنيف. ومع ذلك، لم يكن هناك أي شك على أي مسرح عمليات حول ما إذا كان من حق المجرمين الحصول على الحماية الكاملة بمقتضى مواثيق جنيف.

16. نفس المرجع السابق.

17. نفس المرجع السابق.

18. دليل على التغطية الصحفية الواسعة التي حظيت بها حادثة سامراء، بدأ توم كروز في تصوير فيلم عن الحادث.

19. نفس المرجع السابق، 5-8؛ توماس إي. ريكس، فياسكو: المغامرة العسكرية الأمريكية في العراق (نيويورك: مطبعة بنغوين، 2006)، 90-279.

20. وليام كريستول، وزير الدفاع الذي لدينا، 15 كانون الأول/ ديسمبر 2004، http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A132-2004Dec14.html> (28 حزيران/ يونيو 2010).

21. من أمثلة هذه الهزيمة التكتيكية الإبادة شبه الكاملة للكتيبة الثانية، الفوج السابع فرسان، التابع للفرقة الأولى فرسان، في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1965، في وادي لادرانغ. ثمة وصف جلي لهذه المعركة في كتاب "كنا جنوداً ذات مرة.. وشباباً» للفريق المتقاعد هارولد جي. مور وجوزيف إل. غالواي.

22. إن استخدام أساليب الاستجواب الصارمة متشابكة تشابكاً عميقاً مع فضائح غوانتنامو، وأبو غريب، وبغرام، وتم وصف حادثة سامرّاء أعلاه. وفي حادثة القتل بالحمودية في 12 آذار/ مارس 2006، قام خمسة جنود من الفوج 502 مشاة، بالفرقة 101 المحمولة جواً، باغتصاب فتاة عراقية في الرابعة عشرة من عمرها واغتالوا أسرتها. وكان الحادث موضوع كتاب حديث، قلوب سوداء، تأليف جيم فريدريك. ومذبحة كندوز هي موضوع فيلم تسجيلي أوروبي. انطوت هذه المذبحة على موت مئات من أفراد طالبان عندما نقلتهم قوات التحالف الشمالي في حاويات خالية من الهواء، وزُعم أن ذلك تم تحت إشراف فريق القوات الخاصة بالجيش الأمريكي. وكان لفيلق مشاة البحرية الأمريكية نصيبه هو الآخر من الفضائح الأخلاقية، وهي الحوادث السيئة السمعة إلى حد كبير التي وقعت في الحديثة، والحمدانية، وشنوار.

23. ديفيد هاكيت فيشر، معبر واشنطن (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 2004)، 375.

24. نفس المرجع السابق، 379.

25. ديفيد بوسكو، "المبدأ الأخلاقي مقابل الضرورة العسكرية"، عالم أمريكي، شتاء 2008، http://www.theamericanscholar.org/moral-principle-vs-military-necessity/> (28 حزيران/ يونيو 2010).

26. نفس المرجع السابق.

27. نفس المرجع السابق.

28. دكتور فرانسيس ليبر، "تعليمات إلى حكومة جيوش الولايات المتحدة في الميدان"، قانون الحرب، 24 نيسان/ إبريل 1863، http://www.lawofwar.org/general_order_100.htm (10 حزيران/ يونيو 2010)، المقالتان 16 و 49.

29. تلفورد تيلور، "مقدمة"، قانون الحرب: تاريخ تسجيلي، مراجعة ليون فريدمان (نيويورك: راندوم هاوس، 1973)، 6. طبقاً لتيلور، ظل ميثاق ليبر «لنصف قرن البيان الرسمي للجيش حول الموضوع. وفر مادة كثيرة لمعاهدتي لاهاي لسنتي 1899 و1907، ولا يزال اليوم يجذب انتباه بوصفه الوثيقة الجنينية لصياغة قوانين الحرب للبلاد».

30. ليبر، المادة 22.

31. الرئيس جورج دبليو. بوش، "مذكرة، المعاملة الإنسانية لمعتقلي القاعدة وطالبان، 7 شباط/ فبراير، 2002"، دار المحفوظات الوطنية بجامعة جورج واشنطن، http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB127/02.02.07.pdf (28 حزيران/ يونيو 2010)، 2؛ دونالد رامسفيلد، مذكرة لرئيس هيئة الأركان المشتركة، وضع طالبان والقاعدة، 19 كانون الثاني/ يناير 2002"، دار المحفوظات الوطنية بجامعة جورج واشنطن، http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB127/02.01.19.pdf> (28 حزيران/ يونيو 2010).

32. لا يوجد من بين تقديرات الاستخبارات التي احتفظت بها من 1996، وهي التدريبات المتقدمة للمقاتل الحربي المفصلة بعاليه، تقدير واحد يضم إشارة واحدة لمسألة عسكرية مدنية. فهذه التقديرات الاستخباراتية تناقش فقط ترتيب العدو النظري للمعركة، والمعدات، ومسارات العمل المحتملة لقوات المناورة الخاصة به. وقبل 2003، شاركت في ثلاث مناوبات بمركز التدريب الوطني في فورت إروين بكاليفورنيا، ومناوبتين في مركز التدريب على المناورات القتالية في هوهينفلز بألمانيا. وكانت جميع هذه المناوبات باستثناء الأخيرة، متطابقة في تجاهلها للجوانب العسكرية المدنية للأعمال الحربية (ولم تكن آخر مناوبة لي عام 2002 أفضل من ذلك بكثير). ولا شك أن الكلاشيه القائل بأن الجيش يتدرب لآخر حرب انتصر فيها، وليس للحرب التالية التي سيخوضها، مناسب هنا. إن العدو العسكري الخالص الذي حاربناه على الإطلاق وكان أقرب للذي حاربناه في تدريباتنا في تسعينات القرن العشرين هو الجيش العراقي، بالنظر إلى أننا حاربنا هذا الجيش في الصحارى حرب الخليج الحالية.

33. دكتور دون إم. سنايدر، والرائد جون إيه. ناغل، والرائد توني بفاف، "احترافية

الجيش، والأخلاق العسكرية، ومهنة الضابط في القرن الحادي والعشرين"، معهد الدراسات الاستراتيجية بالكلية الحربية التابعة للجيش الأمريكي، كانون الأول/ ديسمبر 1999، http://www.strategicstudiesinstitute.army.mil/pdffiles/pub282.pdf (28 حزيران/ يونيو 2010)، 2. بالنظر إلى أن هذه الوثيقة كتبت قبل الحرب على الإرهاب، فإنها لا تربط ربطاً مباشراً بين عقلية "حماية قوتنا بأي ثمن" التي سادت في تسعينات القرن العشرين وبين عقلية "الاستخبارات بأي ثمن إذا كانت ستنقذ الأرواح" التي سادت السنوات المبكرة من هذه الحرب. ومع ذلك، فإن هذه الوثيقة التي استطلعت الغيب على نحو مدهش تتنبأ بهذا الربط، بقولها "إن قواعد الجيش للسلوك الاحترافي تتآكل بفعل التوجيهات السياسية بشأن حماية القوة". كما دعت الوثيقة جيشنا إلى العودة إلى الأخلاق العسكرية الاحترافية المتجذرة في المبادئ.

34. الجنرال جيمس إن. ماتيس، "توجيهات قائد قيادة القوات الأمريكية المشتركة بشأن العمليات المبنية على الآثار"، فصلية القوة المشتركة، الربع الرابع، 2008: 105-108، 107؛ الفريق تيم تشالانس، «إيقاع الأبقار المقدسة: الإمكانيات الأخلاقية من خلال الفن العملياتي»، ميليتاري ريفيو (أيلول/ سبتمبر - تشرين الأول/ أكتوبر 2009): 19-28، 19. فرض الجنرال ماتيس في إرشاداته القيادية إلى قيادة القوات الأمريكية المشتركة، قيداً على حجم التخطيط العملياتي المبني على الآثار، بقوله، «إن أي بناء تخطيطي يحاول ميكانيكياً توفير اليقين في بيئة متأصلة بعدم اليقين يخالف طبيعة الحرب». ويربط تشالانس ربطاً مباشراً بين التخطيط العملياتي المبني على الآثار وبين عقلية أخلاقية، بقوله إن، «هذا النهج، تحت أي مسمى، لا يحمل في طياته إمكانية تذكر لاستيعاب الشواغل الأخلاقية الهامة التي ثبت أنها تنطوي على تداعيات استراتيجية».

35. كان المقدم ألين وست، مثله مثل ساسامان، قائد كتيبة في الفرقة الرابعة مشاة خلال عملية حرية العراق 1. ولكي يستخلص معلومات استخباراتية، سمح وست لجنوده بضرب معتقل قبل إطلاق عيارين من مسدسه بالقرب من رأس المعتقل. وكان ضابط الصف ولشوفر، الذي عاصر وست وساسامان في العراق، كبير محققين في فوج الفرسان المدرع الثالث. وقد وُجد أن ولشوفر مذنب بالقتل الخطأ نتيجة الإهمال في قضية معتقل مات أثناء تطبيق أسلوب وحشي في استجوابه.

36. الرقيب سارا وود، "يحث بتريوس القوات في خطاب أخير على التمسك بالمعايير الأخلاقية"، عملية حرية العراق: الموقع الرسمي للقوات الأمريكية - العراق، 14 أيار/ مايو 2007، http://www.usf-iraq.com/?option=com_content&task=view&id=11869&Itemid=110 (28 حزيران/ يونيو 2010). تم تعريف إساءة معاملة غير المقاتلين في التقرير، بأنه إما سرقة غير المقاتل، أو تدمير أو إتلاف ممتلكات بلا داع، أو ضرب أو ركل غير المقاتل.

37. الجنرال ديفيد إيتش. بتريوس، "الملحق 1: الجنرال ديفيد إيتش. بتريوس حول القيم"، في أخلاق تكتيكية: السلوك الأخلاقي في ساحة المعركة مع المتمردين، بقلم ديك كوتش، 113-115 (أنابوليس: مطبعة المعهد البحري، 2010): 113، 114.

38. كوتش، 46.

39. "حول CAPE"، مركز مهنة وأخلاقيات الجيش الأمريكي (29 تموز/ يوليو 2010)، على موقع http://acpme.army.mil/about.html (15 آب/ أغسطس 2010).

40. كوتش، 77. ربما لتحاشي البلبلة في عقول القائمين على مكافحة التمرد، يصف كوتش فعلاً أولئك الأفراد المعدومي الأخلاق بأنهم "قراصنة" وليسوا متمردين، رغم أن دورهم أقرب ما يكون إلى دور المتمردين.

41. كوتش، 54. إن ما يزيد المشكلة تفاقماً، كما يشير كوتش، هو أن جيل الجنديين اليوم (الذي تتألف غالبيته من جيل "الألفية") يبدي "حاجة إلى الانتماء" أكثر من الأجيال السابقة.

42. الرائد تونى سوتزي، بريد إلكتروني إلى الرائد دوغ برايير، 16 حزيران/ يونيو 2010.

43. ماثيو ألكزاندر، بريد إلكتروني إلى الرائد دوغ برايير، 23 حزيران/ يونيو 2010. كان أبو مصعب الزرقاوي متشدداً أردنياً ومؤسس الجماعة الإرهابية، "القاعدة في العراق". كان الزرقاوى قبل قتله بقنابل موجهة في 7 حزيران/ يونيو 2006، أكثر رجل مطلوب لقوات التحالف في العراق.

43. كوتش، 16.

44. طبقاً للرائد كيفن كوترايت، وهو معلم سابق للفلسفة في وست بوينت بمركز مهنة وأخلاقيات الجيش الأمريكي، كان يجري دورة تدريبية لأسبوع واحد في وست بوينت تحت عنوان "الدورة الرئيسية للمدربين في مهنة الجيش وأخلاقياتها". وقال إن ثلث الطلبة كانوا من رجال الدين، والبقية من ضباط الأركان، وكبار ضباط الصف، ورقباء التدريب. وبالنسبة للمرحلة الثانية المقترحة من التدريب، دأبت فرق من قيادة العمليات الخاصة وهيئات مدنية مختلفة لعقدين من الزمان الآن على تناوب التدريب في المنشأة التدريبية التابعة لشركة الدفاع المتلاحم، وهي شركة مدنية. وما يميز برنامج شركة الدفاع المتلاحم (CQD®) أنه فريد في دمجه بين تدريب المحاربين الداخليين، والمفاهيم الأخلاقية، وأساليب القتال التلاحمي. إن الجندي يقاتل على نحو أفضل، كما يدرّس البرنامج، إذا لم يكن يقاتل من أجل زملائه الجنود وحسب وإنما أيضاً من أجل عائلته ووطنه. كما يدرّس البرنامج أن الجنود الحقيقيين يُبدون خصالاً كالاحترام، والتعاطف، وضبط النفس الشجاع. وتدمج الدورة التدريبية التي تجريها هذه الشركة التدريب غير المسلح مع التدريب المسلح، ويتصاعد من الفرد إلى الفريق. وكل دورة متخصصة لمهمة المجموعة. ويُعد "تدريب الصندوق الساتر" من الأساليب الفعالة بالذات التي توظفها الشركة لتعزيز قدرة الجنود على الاستجابات الصحيحة في مختلف السيناريوهات. في هذا التدريب، يقف الجندي قريباً من صندوق ساتر، وعندما يُرفع الصندوق، عليه أن يرد بسرعة على خطر "قاتل" أو "غير قاتل".

46. الرائد دوغلاس إيه. برايير، القتال من أجل المرتفعات: الجيش الأمريكي وأساليب الاستجواب خلال عملية حرية العراق، أيار/ مايو -2003 نيسان/ إبريل 2004 (فورت ليفينوورث: مطبعة مؤسسة كلية القيادة والأركان العامة، 2009)، 88. يُستشهد هنا براوية قائد فصيلة من القوة الخاصة 1-36 مشاة، الفريق القتالي باللواء الأول، القوة الخاصة بالفرقة الأولى مدرعات. في أوائل صيف عام 2003، وقف قائد الفصيلة الضعيف هذا بينما أخذ جنوده يرتكبون عملاً وحشياً صرفاً. لقد سرقت الفصيلة أموالاً من السكان المحليين لشراء مواد ترفية، وضربوا اللصوص، وأخذوا في ضرب عراقي بريء لمجرد المتعة الشاذة. وبالنسبة لجرائم الفصيلة، قضى رقيب الفصيلة بالفعل مدة في السجن بينما فصل قائد الفصيلة من الجيش. وهذه مجرد واحدة من عدة أمثلة حديثة في العراق وأفغانستان لشباب ضباط تغيروا، بدل أن يغيّروا ثقافة فرعية غير أخلاقية لوحدة صغيرة.

47. ليست كلية القيادة والأركان العامة وحدها بالكاد في هذا الخصوص من بين مدارسنا للخدمة العسكرية.

48. في 13 أيار/ مايو 2010، وصف الجنرال ستانلي ماكريستال النزاع بأنه "متعادل".

49. إن الديمقراطية "الناضجة" هي التي يكون فيها للناس سلطة حقيقية على حكومتهم. ربما يُعد تعريف صامويل بي. هنتنغتون للديمقراطية الناضجة أكثر التعريفات المرجعية الشائعة. فطبقاً لهنتنغتون، فإن الديمقراطية التي يحل فيها حزب معارض محل الحزب الحاكم مرتين بأسلوب سلمي وديمقراطي، يمكن وصفها بأنها ديمقراطية "ناضجة". وكثيراً ما يتجادل أساتذة العلوم السياسية حول ما إذا كانت الديمقراطيات الناضجة الحقة تشن حرباً ضد بعضها البعض على الإطلاق.

Controlling the Beast Within: The Key to Success on 21st-Century Battlefields
Major Douglas A. Pryer, U.S. Army
Originally published in the English January-February 2011 Edition.